أثر الدعاية السليمة فى توجيه الشعوب

لفضيلة الأستاذ الشيخ مصطفى الصاوى
المدرس بالجامعة الأزهرية

لعل من أكبر الدلائل على عظيم قدرة البارى وبديع صنعه أن خلق الناس من أب واحد وأم واحدة متحدين فى الصورة مختلفين فى المشارب والنزعات والميول والرغائب ، فلا تجد توافقا تاما بين شخصين أبدا حتى ولا بين الشقيقين ولو كانا توأمين .

وقضية هذا الاختلاف ذات أثر فعال فى أعمال الأفراد فكل فرد تواق إلى إشباع رغباته والاندفاع فى تحقيق موحيات نزعاته ، وعلى هذا الاختلاف ينشأ إلى حد كبير خلاف فى الأعمال العامة والاتجاهات المشتركة التى لا بد منها لحياة الفرد والجماعات ، والحياة لا بد لها من توحيد الاتجاه والعمل لتنفيذ الغرض المشترك السامى الذى لا بد منه لتقطع الإنسانية مراحل الحياة متماسكة متضامنة ضد عاديات الدهر وصروف الزمان .

فلذلك كان لا بد من قيادة رشيدة ، وإمامة حكيمة ، وزعامة مفكرة ، وكان الناس شديدى الحاجة إلى من يوحد اتجاهاتهم ويوفق بين رغباتهم فيحد من طغيان هذا ويزيد فى إحسان ذاك وهكذا يوجه الجميع وجهة سليمة صحيحة تهدف إلى الخير والسعادة ، وكان من اللازم كذلك أن يكون الموجه فردا ممتازا عن الناس بمواهب خاصة لا تتيسر لسواه من عامة الناس .

ولهذا فقط اختار الله للناس نبيا رسولا من نوع البشرية إلا أنه يمتاز بمواهب ممتازة : ولذلك كانت جميع دعوتهم بالحكمة والموعظة الحسنة ، فكان هؤلاء المرسلون دعاة من أفضل الدعاة الذين هذبوا الإنسانية وقادوها أحسن قيادة ووجهوها توجيها حسنا وساروا بها فى سبيل السعادة والسلام ، وكان فى الفترة بين الرسولين يقيض الله أناسا من خيرة البشرية متمرسين بأساليب أولئك الأنبياء يقومون بتنفيذ رسالة الأنبياء يرشدون الناس إلى طريق الخير والسعادة ، ويحولون بينهم وبين الشرور والآثام .

والذى يعنينا من ذلك العرض العابر أن نبين أن دعوة الرسل كانت سليمة إلى أقصى حد فأثمرت أطيب الثمرات من تنسيق الحياة للناس وتهذيب الاجتماع وتعبيد الطريق لقافلة البشرية وقيادتها إلى سبل السلام وتكوين الجيل تكوينا إنشائيا يعمل فى غير ملال إلى الخير

والخير . ويحقق خلافة الله فى الأرض ... وتبين كذلك ان دعوة غير المرسلين أثمرت ثمرا من لون ما أثمرته دعوة الأنبياء المرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، وليس أفضل أثرا من دعوة تيسر على الناس سبل العيش الرغيد ، وتمنع التشاحن والصدام ، وتقرر الأمان والطمأنينة فى حياة أولاد آدم وحواء .

وبحكم قضية الاختلاف بين أفراد الجماعة البشرية نرى أن الأمم تحتاج فى كل أطوار نهضاتها إلى دعاة مرشدين ، وقادة مصلحين ، لأن عقلية الجماعة دائما عقلية عامية سريعة اللفتات قليلة الانتباه لا تقف كثيرا عند فلسفة الوقائع ومنطلقها ، ولا تدور معها تبحث وتحاول وتفتش وتنقب ، ومن هنا كانت الجماعة فى حاجة ماسة الى من يبحث فى فلسفة وقائعها ، ومنطق اتجاهاتها ويفرض ما لمقدمات نتائجها من خير وشر ، ثم يقدم إليها ذلك بعيدا عن تعقيد الفلسفة ودوران المنطق ، بل يتلمس إلى مستقر الهوى فى نفوس الناس كل سبيل لينفذ إليهم بهذه النتائج التى انتهى إليها فى يسر وسهولة .

وإذا كانت الأمم فى كل أطوارها فى حاجة إلى دعاة ، وإذا كان هؤلاء الدعاة هم عقل الأمة ولسانها ، وإذا كانوا على هذا الاعتبار خليقين ببعض الخصائص الممتازة فى النفس والعقل ضرورة أنهم بنفوسهم وعقولهم إنما يعدون المستقر ويهيئون المآل لجيل قادم ، ويشرفون على جيل حاضر يسايرهم ويسايرونه .

أقول إذا كانت الأمم والدعاة على هذا الوضع فان الموقف يختلف فى كل شعب عنه فى بقية الشعوب والجماعات ، فان لتقاليد الشعب وماضيه ، ومميزاته الجنسية والعقلية ما يجعل مشكلة كل شعب تتلون بلونه الخاص ، فلا بد لها من حل يتفق وطبيعة هذا اللون الخاص يسرا وسهولة .

ولعل أدوار الانتقال هى أهم الأدوار التى تجتازها الأمم وأعقدها . ومن ثم فان الجماعات فى أدوار الانتقال هذه تكون عرضة للاتجاه الخاطئ فى كثير من الأحايين حيث لم يستقر فى أذهان أفرادها هدف خاص ولم تتخذ بعد طريقا واضحا تسير عليه . وانما الأمر لا يعدو أن يكون فى عقلية الجماعة رغبة فى الهدم وطموحا للبناء لا أكثر ولا أقل . فلم يكن فى عقلية الجماعة ساعتئذ اتجاه الى أى شىء آخر كأن يفكر فى ما الذى يهدم من القديم وما هو الأسلوب الذى سيبنى عليه الجديد ؟ وما الفرق بين المهدوم والمبنى ، وهذه أسئلة لاتختلج كثيرا فى نفوس الجماعة فى هذا الدور . فهى تصفق لكل هدم مهما كان المعول الذى يحطم . ولا تنظر الى عاقبة هذا التحطيم ومهما كان الصرح الذى ينهار . ولو كان فى انهياره تقويض المجد الذى بناه أباؤنا الأولون . . وكأن ثورة الحماسة للنهوض البراق المزعوم لاتدع مجالا كبيرا

لرؤية الجماعة . وهى كما قدمنا حاسة لاتكاد تكون ملحوظة الأثر فى عقليتها . فسواء أكان الذى يتحطم من صميم ذات الشعب وتقاليده أم كان من توافه العادات فإن هؤلاء الهادمين سوف يجدون من بين الجمهور دائما أيدى تصفيق وألسنة تاهج بالثناء وأفئدة تدفع الى التشجيع.

وهذا الوضع أو قريب منه كل القرب هو مشكلة عصرنا فى بلدنا هذا . فانه لم تكد المدنية الجديدة ترمى الى عيوننا بشعاع واحد من أشعتها حتى تدافع سواد الناس الى مصدر هذا البريق مهطعين . وفى غير أناة أو روية نبذوا خلفهم كل شىء ، ونسوا قديمهم بخيره وشره ، واستحثوا المطى الى غاية لايعرفون عنها غير بريقها الخلاب الذى أغراهم بهذا السير واجتذبهم بمغناطيسية لمعانه فنشأ مع ذلك دعاة للجديد على وضع لم يستقر بعد فى أذهانهم لأن الأمر كان على وحى السرعة المتعجلة التى تريد أن تصل ولا شىء بعد أن تصل — ودعاة للقديم لايعرفون عن أمر هذا الجديد شيئا وتغلغلت كراهيته فى نفوسهم لالشىء سوى أنه جديد . بل لايعرفون عن قديمهم غير بعض الأوضاع المسترخية التى لاتقوم شعبا ، ولاتنهض بحياة .

وسواء كان الباعث على هذه السرعة فى الأخذ بالجديد والدعوة اليه فى حرارة جمود أصحاب القديم ، وتحكمهم فى عقول الجمهرة الكبيرة من الشعب ، واندفاع أصحاب الجديد فى غير أناة وبصر بالعواقب ، فان افكار الناس قد تجاذبها تياران عنيفان وكان تحال فى ناحية وحفاظ فى أخرى أو مايقال عنه رجعية وتطور . وكان لمظاهر الحياة الجديدة التى صرنا اليها ، وما نتج عنها من اختلاط الشعب واختلاط ألوان الحياة فيه عناصر جديدة تتفق مظاهرها الى حد كبير ومظاهر الدعوة التى يدعون اليها ، كما كان لوضع هذه العناصر الأجنبية بعض الأثر فى انتصار الدعوة الجديدة .

وسواء انتصر هذا أو ذاك فان الذى يعنينا فى الأمر أن ندرك أن أحد هذين العنصرين من الدعاة أو هذين اللونين من الدعوة لم يكن عن دراسة من الداعية وتمحيص وهدى من دراسته وتمحيصه . ولهذا فقد اختلط الأمر على الناس حينا ثم اندفعوا فى غير روية مع أنصار الحديث . وكانوا مندفعين حتما رضوا أم سخطوا لأن العوامل الاجتماعية لا تقف كثيرا عند رضى الراضين . ولا يعوقها عن السير فى سبيلها سخط الساخطين ... وكان ما كان ... ...

وأخيرا تمخضت هذه الثورة الاجتماعية عن وضعنا الحالى الذى لا يزال يتخبط بعض التخبط وان كان قد استقر فى مدرجة الفساد كثيرا من الاستقرار .

ولما كانت الثورة الاجتماعية من أجل الحديث قد اعتمدت فى أول بنائها على نسيان كل القديم ، ما اتصل منه بطبيعة الشعب ومالم يتصل ، فقد بدأت الجماعة تحس مقدار مافقدت من أجل هذا التطور (بعد أن ذهبت السكرة وجاءت الفكرة) .

فالشعب اليوم لا يجد مميزاته ولا مقومات ذاته فمقومات حضارته تمثل صريح عن مظاهر الحضارات الأجنبية حتى لا يكاد أحد الأجانب من النزلاء يحس فرقا كبيرا بين ما شيدته حركة التطور فى مصر وما يجده فى بلاده كل يوم وفى كل مكان .

و إذن فأين وضعنا الخاص بين الشعوب ؟

أين الطابع المصرى الحديث فى الفن أو فى الأدب ، فى البناء والعمارة ، فى الألعاب أو فى وسائل التسلية ؟

أين الطابع الجديد فى التقاليد أو العادات أو فى أى مظهر من مظاهر حياتنا قل أو عظم تفه أو جل ؟

الجواب لاشىء بكل أسف فنحن لم نعد غير برق يدوى بما يوحى اليه ولكنه لا يقول من نفسه شيئا . و إذن فما العلاج ؟

وهل نقوم الآن بهدم الجديد كله كما هدمنا القديم كله؟ و إذا كان لابد من الهدم، فكيف نسلك السبيل اليه ، بعد أن تمكنت بعض مظاهر الجديد من نفوس الناس واتخذت لها فى حياتهم مجرى فى شرايينهم واحتلت قرارة أنفسهم مستقرا ومقاما ؟

وهنا يبدو دور المرشدين الاجتماعيين . وهنا يأتى مكان الدعاية السليمة . وهنا تظهر قوة الدعاة وحكمتهم ونتائج أعمالهم وأثر دعاياتهم . فبالدعوة السليمة تستطيع أن تنتزع من النفوس كثيرا مما رسخ فيها واستقر .

والخطوة الأولى فى هذه الدعوة الجديدة يجب أن تقوم على تحديد الهدف الذى نسعى إليه ونستمد منه عوامل القوة والمضاء فنحدد موقفنا أولا من الحضارة الحديثة . ونعرف مايتفق منها وماضينا الطويل وتقاليدنا العتيدة . . . فالتقاليد والماضى هما نقطة الاتصال بالحاضر ولا حاضر لمن لا ماضى له . و إذا استطعنا أن نتعرف على ماضينا قريبه و بعيده وتدارسنا عوامل القوة والضعف فيه فقد تفهمنا شخصيتنا الكامنة فى خطوة من خطوات حياتنا وكان لفهم هذه الشخصية تجاوب فعال فى صميم نفوسنا .

اذا تعرفنا الماضى بهذا الوضع استطعنا أن نتخذ من حركة التجديد وسائل لتجميل شخصيتنا والنهوض بها لا وسيلة من وسائل هدم هذه الشخصية . و بتركيز هذه الشخصية الشعبية فى نفس كل فرد ينشأ لنا فن جديد وأدب جديد وتقاليد جديدة باعتبار ما نحن فيه لاتختلف مع ماضينا الطويل فى غير المظهر . و بهذا نجد لنا وضعا بين الشعوب بعد أن عشنا بلا وضع خاص و يمكننا أن نسير فى دعوتنا الجديدة على سنن من هذه الشخصية . على أن الدعوة للخير

والاصلاح يجب أن تتوافر لها أدواتها ووسائلها وأن يكون بين القائمين عليها رجال الحكم فلا يفرضوا لأنفسهم وضعا خاصا دون الناس ولا يتركون أمر الدعوة لبعض الداعين لها ثم يقدموا هم بعد ذلك للشعب أمثلة لا تتفق والاتجاه الذى يريدون من دعواتهم فأكبر عائق للدعايات أن ينقسم الشعب الى طبقات يصدف بعضها عن مسايرة الإصلاح .

وبتضافر الحكام مع القائمين على الدعوة للإصلاح نستطيع أن نكون من مبتكرات الحضارة نفسها وسيلة للإصلاح بعد أن كانت بالأمس من وسائل الافساد . واذا استطعنا أن نحيط الدعوة الى الخير والاتجاه اليه على هذا الوضع من تعرف شخصيتنا الخاصة بوسائل من الإغراء والاستهواء فان سبيلنا الى تركيز تعاليمنا الجديدة فى النفوس معبدة آمنة .

بقيت نقطة واحدة هى شخصية الداعية . ولعل أكبر ما نقع فيه من الخطأ فى دعوتنا هو عدم عنايتنا بتخير الداعية . فلا يزال الداعية برغم أنه لا عمل له واضح الجهة يعين فى عمله كما يعين القائمون على الأعمال الآلية من الكتبة ورجال الحفظ وغيرهم من غير اختيار خاص نكتشف به سيطرة شخصيته على سواه ومدى استعداده لدور القيادة ، فالداعية قائد اجتماعى ولا شك فى ذلك .

وكما فكرنا فى اختيار الداعية فكرنا كذلك من ناحية أخرى فى العناية به وإظهاره بين من يدعوهم فى وضع اجتماعى ممتاز . فلا تزال طبقة المرشدين والدعاة طبقة ضئيلة الدخل لا تجد لها فى الهيئة التى تعيش فيها وضعا محترما مهيبا فى نفوس الناس . وبفقدان الداعية هذا المعنى نراه يتحول الى ذليل أو ناقم وليس من المصلحة فى شىء أن نكل توجيه الشعب الى ذليل كسير . ولا الى ناقم ثوار لا يستقر . وكيف يفكر للشعب من يعيش فى فاقة واقلال بين الشعب وهمه الذاتى يأخذ كل تفكيره ويشمل كل وقته .

أما تكوين الداعية وهو أمر خطير فلا نزل بعيدين كل البعد عن التفكير فيه تفكيرا منتجا وأستطيع أن أقول ولو أغضبت الكثيرين إن من يصلحون ثقافيا للقيام بدعوتهم فى هذا البلد الطويل العريض لا يتجاوزون عدا أصابع اليد الواحدة أو اليدين .

ولعل السر فى ذلك ما فى سياسة تعليمنا نفسها من تخبط وعدم ارتكاز على أساس من النظر فى حاجيات الشعب وطريق النهوض به من تلك الأمور التى تدفع للتفرقة الفكرية والعاطفية بين أبناء البلد الواحد وقد كان الغرض من التعليم غير ذلك . فهذا التعلم يتجه فى أغلبه الى نسيان ديننا وتقاليدنا وأدبنا . والدين والآداب والتقاليد هى الوسائل الثلاث التى بها يمكن أن نتعرف شخصيتنا . ومن ناحية ثانية يتجه هذا التعلم الى نسيان أو إهمال بعض ما لا غنى عنه مما أحدث العلم وبقاء علوم الشرع واللغة على وضع قديم لا يتفق كثيرا مع عصرنا هذا .

فلا بد لنجاح الداعية من جديد وقسيم يدرس هـذا وذاك ليخرج فى النهاية بمعانى يلتق فيها قديمنا بجديدنا ويتحد ماضينا وحاضرنا فلا نعيش غرباء عن أنفسنا أو عن العالم... وهذا النوع من الإعداد مفقود مع الأسف . ولكن الأمر مع ذلك غير ميئوس منه متى صدقت الرغبة وسرنا على السبيل .

وإذا كانت الوسائل اليوم ليست كافية كل الكفاية فلنعمل اليوم بما لدينا ولنعد لغدنا المنتظر عدته فليست الحياة غير مستقبل يرتجى وحاضر يستكمل ما وسعت الطاقة .

وأخيرا ما أثر الدعاية السليمة فى توجيه الأمم ؟ أحسبنى قد قلت كل الشىء .

فليست الدعاية السليمة غير إعداد الأهداف للشعب وإحياء شخصيته فى نفوس أبنائه والحرب الجبارة نعلنها على مظاهر التحلل الذى انتشر فى كل مكان ووسط وإذا استطعنا القضاء على عناصر التحلل وحده فقد أوجدنا المسئولية على عاتق الأفراد وليس أمام المسئولية حين نريد أن ننتصر إلا معرفة الهدف ثم السير الملح الحثيث .

وأخيرا فما أثر الدعاية السليمة؟لا أقول أكثر من أنها إحياء لمجد الشعوب وخالق لكرامتها وتحديد لما يلى من فضائلها وتوفر أسباب سعادتها وتكوين ذاتيتها على وضع مهيب ونظام مستقر وحياة كريمة .

وفقنا الله لخير هذا الوطن وإنقاذه ما

مصطفى الصاوى

وأين الحوادث من صحبة   كنحل يحن وأنت الزهر

قليلون عند امتناع القطاف   كثيرون عند رجاء الثمر

شوقى